وعندئذ تشتد لهفته ، وتزداد حسرته إزاء ما ينتظره فى هذا الغد القاتم وهو يدفن ، فلا تكاد تبين له بين الرفاق طبيعة الوفاء من طبيعة الغدر ، أو الرغبة الجارفة فى الانصراف من القبور إلى الدنيا ، إنها الرغبة فى البقاء بعيدا عن وحشة القبر التى عليه أن يواجهها فريدا وحيدا ، وهى وحشة يتقمص فيه الشاعر شخصية الميِّت . وهو لايريد أن يتجاوزها إلاَّ بمقدار ، فيستطرد مرة أخري فى تصوير جديد لمشاهد الذكريات (٣٩-٤٣) ، وتتسع مجالات الذكريات لديه وتتناثر بين مشاهد : الرحى ، أسماء المواضع فى بادية بلاده ، أناس من قومه وأهله ، نساء من قبيلته ، الإبل الصلبة سريعة العدو ، ورائحة الأقحوان ، والخزامى ، جماعات الركبان وهى تجوب الصحراء ، وهى ذكريات تبدو عامة حين تتعلق بالوطن والطبيعة ، وأساليب العيش ، ووسائل المتعة في هذا الوطن ، وهو ما يضيق دائرته وحدوده حين تشده دائرة الذكرى ثانية إلى منطقة الأهل (٤٤-٤٦) فيذكر أمه ، ويصور كيف سيكون بكاؤها عليه ، ويتصور مدى حسرتها على فقده بعيداً عنها ، ولذا يدعوها إلى زيارة قبره والدعاء له ، وكأنه يُضَمِّن الموقف رسالة يبعث بها إلى أمه بخاصة ، باعتبار قربها من نفسه منذ مولده إلى خروجه عبر هذا الغزو ولقائه للموت ، وكأنه يريد أن يزيد من همومها ، واستثارة شديد حزنها بزيارة قبره ، وقد لفَّهُ التراب من كل جانب ، وأصبح جسده رهينا لظلمة ذلك القبر ، عاجزاً عن تجاوزه مرة أخرى إلى الدنيا وعالم الأحياء .

وهى رسالة يوسع الشاعر من دائرتها لتشمل أسرته كلها ، ثم تمتد إلى قومه جميعا ، حيث كاد يجعل مضمونها ذلك الوداع الأبدى إلى غير رجعة ، بما يحمله من علامات الحزن وصور البكاء المتوقع ، ولذا يعاوده الاستطراد إلى مخاطبة الرفيق لإبلاغ بنى مالك والريب أنه لا لقاء بعد هذا النبأ الختامى (٤٨ - ٥٥) ، وهو نبأ يغلِّفه ثانية أو ثالثة أو رابعة بذلك الحنين إلى مقومات الوطن فى لحظة حزن بين أكباد يتصور أنها ستفلق ، وبكاء يتردد إلى غير نهاية ، وهو بكاء تزداد خصوصيته حين يرتهن بأقرب الناس إليه من نساء أسرته ، من أمه وخالته ، وبناته ، وزوجته ، ولكنه يجد بقايا عزاء فى ثنائه على كل هؤلاء ، إلى جانب ثنائه على وطنه الذى لم يعرف له فى نفسه بغضا ، ولا فى صدره ضيقا فى أى من الأوقات .

وتبدو خصوصية التجربة واضحة فى القصيدة سواء ما يبرز فيها من قضايا الصعلكة ، أو ما يغلب عليها من الطابع القصصى المتقطع ، مما يتبلور فى موقف الشاعر كبطل جبار شرس ، ثم ذلك البطل الضعيف المهزول أمام لوحة الموت ، وهو أيضا ذلك البطل الباكى